

الفصل الأول - الباب الأول

الانكشارية التي حاصرت المحتجين في بيت جبرين ثمانية أشهر إلى أن كسرت شوكتهم، وأوقفت الآستانة رواتب الموظفين في القدس وشلّت الحياة التجارية والاقتصادية إلى أن تبعثرت الحركة وفرار النقيب الحسيني ورجاله وملاحقتهم وإعدامه. أما المحاولة الأبعد مدى فهي ثورة ظاهر العمر الزيداني الذي لم يخف نزعته الاستقلالية عن الآستانة. وقد اغتتم فرصة الحرب بين السلطنة وروسيا وتنازل العثمانيين عن منطقة القرم والتفسيخات في الجيش الانكشاري، فسيطر على عرابة، الدامون، صفد، طبريا، يافا، اللد، الرملة... فوحد شمال فلسطين وجعل عكا مركزاً تجارياً وعاصمة سياسية واقتصادية.

ودارت معارك حامية بين قواته وقوات حاكم دمشق المرتبط بالآستانة، وقوات العوائل الفلسطينية المحلية المرتبطة بالآستانة أيضاً فذاق أهالي فلسطين ويلات الحرب والعذاب، وتحالف مع محمد علي بك الكبير في مصر عام ١٧٦٥م الذي قام بأول محاولة استقلالية عن الباب العالي فسيطر على مصر والجزيرة لبعض الوقت، كما فخر الدين المعني الذي تمرد على العثمانيين في جبال لبنان.

(في ١٧٧٣م اعترف عثمان باشا قائد الحملة العسكرية العثمانية، بظاهر العمر حاكماً على الولاية غزة ونابلس ويافا والرملة وعجلون وصيدا)^(٨٢).

سيطر ظاهر العمر نحو نصف قرن على مسرح الأحداث وقد اتسم حكمه بالعدل والمعاملة الحسنة (وتميزت فترته بانتعاش الحياة الاقتصادية سيما زراعة القطن والحبوب وتصديرهما لفرنسا. وأقام تحالفاً بين الفلاحين والبدو وسكان المدن فصاروا شركاء في الحكم والازدهار، واتبع سياسة من التسامح الديني مع غير المسلمين من المسيحيين واليهود الذين أيدوه في حربه مع حكام دمشق والعثمانيين، وتجمع المسيحيون في عكا العاصمة التي كان عدد سكانها ٢٠ ألفاً بما يعادل ثلاثة أضعاف سكان صيدا حينذاك، وقد أحيى مدينة حيفا، ولجأ له أهالي يافا وغزة فراراً من بطش حكام دمشق وقمعهم الدموي. ولما زحفت القوات المصرية المكونة من ٦٠ ألفاً بقيادة (أبو الذهب) على غزة والرملة، قاومتها القوات الفلسطينية في يافا المحصنة لمدة شهر ونصف إلى أن اقتحمتها ومارست مجزرة فظيعة بعد تقييد أهلها بالجنائز وسبي النساء والصبيان وقتل جميع الأسرى عن آخرهم دون تمييز بين مسلم، مسيحي، يهودي وبناء عدة صوامع من الجماجم

(٨٢) د. مناع، عادل. تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني. مؤسسة الدراسات الفلسطينية بيروت ٢٠٠٣، ص ٦٩